حقيقة الوحي في الفكر الإسلامي
وفائدته في عالم متغير

الباحث عثمان بالدى
باحث في مرحلة الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك (جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء)
المغرب

المقدمة:

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلله ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أمّا بعد، فإنّ هذا القرآن كلام الله تعالى وهو وحيه المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، وهو الكتاب الخالد، والدستور العادل، من أخذ به أفلح، ومن أعرض عنه هلك وعاش في جحيم الدنيا قبل الآخرة.

كتاب فيه فلاح الكون ومن عليه، وفيه هداية البشرية ورشدها، قال تعالى: {ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ}، وهو النور الذي يضيء الطرق لكلّ العصور، فهذا العالم المتغير تغيرا دائما، لا يواكبه ولا ويصلح ويضبط أحواله وأحوال النّاس من حوله إلاّ هذا القرآن الذين أنزل رحمة للعباد.

وهذا دليل على أهميّة هذا الوحي المبين والصراط المنير، ولكن مع الأسف لا يعرف فضل هذا القرآن كثير ممن يشار بالبنان ويترك لهم المقام.

فهذا البحث يأتي لبيان حقيقة الوحي وفضله في حياة الإنسان، وأن البشرية في أمسّ الحاجة إلى معرفة كنه الوحي والامتثال به في الأوامر والنواهي، وفي الشؤون كلّها، وأنّ الحياة بدون العمل بتعليماته حياة لا أمن ولا الاستقرار ولا عدل فيها.

وأنّ الذين ينكرون قضية الوحي وفضله، لا يستندون إلى ركن شديد في عقيدتهم وفكرهم.

وهو يقدم بعض الأدلة على إمكان الوحي، وذلك في المحاور التالية:

(المحور الأوّل: الوحي في اللغة، المحور الثاني: الوحي في اصطلاح الطوائف وفائدته في الكون المتغير

المحور الثالث: الوحي في الفكر الإسلامي وتحته مطالب)

المحور الأوّل: الوحي في اللغة

الوحي لغة يشير إلى معان كثيرة، وهذه المعاني تتمثل في: الإعلام والإشارة والرسالة والكتابة والإلهام والبيان والإلقاء والأمر والإتيان.

وقيل: " إلقاء الخبر أو العلم في خفاء وسرعة."[1]

وكل ما ألقيته على غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان وهو لا يختص بالأنبياء ولا بكونه من عند الله تعالى.

والوحي في اللغة: هو الإعلام بخفاء وسرعة، سواء كان ذلك إعلاما بالهمس أو الإشارة بالعين أو الإشارة باليد، ومنه قوله تعالى: {فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا}

وقال السمعاني: " الوحي في اللغة: إلقاء الشيء إلى النفس خفية، وهو في عرف أهل الإسلام عبارة عما ينزله الله تعالى على الأنبياء، ومن الأنبياء التبليغ إلى الخلق. " [2]

وقال ابن منظور: " (وحي) الوَحْيُ الإشارة والكتابة والرِّسالة والإِلْهام والكلام الخَفِيُّ وكلُّ ما أَلقيته إِلى غيرك يقال وحَيْتُ إِليه الكلامَ وأَوْحَيْتُ ووَحَى وَحْياً وأَوْحَى أَيضاً أَي كتب. ."[3]

وقال ابن فارس رحمه الله: " (وحي) الواو والحاء والحرف المعتل: أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك. فالوحي: الإشارة. والوحي: الكتاب والرسالة. وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان "[4]

وقاله الرّازي في مختار الصحاح، وزاد: " والوَحَا السُّرعة يمد ويُقصر ويقال الوَحَا الوحا البِدار البِدار والوَحِيُّ على فَعِيل السريع يقال موت وحِيٌّ"[5]

وكل ما ألقيته على غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان وهو لا يختص بالأنبياء ولا بكونه من عند الله تعالى.

المحور الثاني: الوحي في اصطلاح الطوائف وفائدته في الكون المتغير

في هذا المحور سنقوم بذكر أقوال الطوائف والمذاهب في بيانهم معنى الوحي فيما اصطلحوا عليه بينهم في بيانهم معنى الوحي، وذلك في المطالب الآتية.

المطلب الأوّل: الوحي عند العرب قبل الإسلام.

إنّ موضوع الوحي في اعتقادات الشعوب مختلف فيه، وهذا منذ القدم، فلذلك نرى أنّ العرب في الجاهلية اختلفوا في مسألة الوحي إلى مذهبين – فريقين –.

الأوّل: لا يؤمنون بالوحي مطلقا، وذلك لعدم وقوعهم على دليل يوافق هواهم في ثبوت الوحي الإلهي.

والثاني: أنّ الوحي ثابت وإن كانوا لا يؤمنون به شرعا، يعني: الوحي ثابت في أعرافهم واعتقاداتهم، حيث أنّهم كانوا يقولون ويؤمنون بتكليم السماء للإنسان.

وقد يروى في الأثر أنّ قريشا كانوا إذا مرّ بهم النبيّ عليه الصلاة والسلام يقولون: " غلاب بني عبد المطلب يكلّم من السماء، وإن قالوها هزءا واستخفافا " [6]

فهذا برهان واضح على أنّهم كانوا يؤمنون بالوحي الصادر من السماء إلى بني البشر.

المطلب الثّاني: الوحي في الفكر السنّي

والوحي اصطلاحا: " عند أهل السنة والجماعة: هو إعلام النبي صلى الله عليه وسلم بشيء إما بكتاب أو برسول أو بمنام أو بإلهام. "

أو هو " إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو غير واسطة ". [7]

وقال السيد محمد رشيد الرضا ": أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه: عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. " [8]

المحور الثالث: الوحي في الفكر الإسلامي

الوحي هو مصدر العلم، ومنبع الثقافة والمعرفة، فالمتأمل في نصوص الوحيين يجد أن الله تعالى قد جمع لنبيه صلى الله عليه وسلم أفضل علوم الأنبياء والمرسلين قبله وأصحها وأكملها، وزاده عليها مما فيه هداية الخلق وصلاحهم ونفعهم في الدنيا والآخرة، وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بمهمة التبليغ أتم قيام، وأداها أكمل أداء، فبين للأمة ما أنزل إليه من ربه، بقوله وفعله وتقريره بيانا شافيا لا مزيد عليه، فما من خير يعلمه لهم إلا دلهم عليه، وأرشدهم إليه، وما من شر يعلمه إلا حذرهم منه ونهاهم عنه، تحقيقا لقول الله تعالى: {لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ }، وقول الله تعالى: {بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }"[9]

وإذا كنا نعرف أن الوحي هو نعمة الله الكبرى على العالمين، وتخيلنا بأذهاننا كيف يكون حال البشرية لو أن الله لم ينزل هذا الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم؟

فإننا لا نستطيع أن نحصر الضلالات والشركيات في الأرض اليوم مع وجود الوحي فكيف مع عدم وجوده الوحي، فإن العالم فيه أمم تعبد أنواعا من المعبودات مما لا يكاد الخيال يصدقه، حتى حدثني بعض الإخوة ممن ذهبوا إلى الهند أنهم وجدوا فيها أقواما يعبدون الذر الصغير – فسبحان الله – إذا كان هذا حال البشرية مع وجود هذا النور وهذا الوحي، فكيف لو لم ينزل هذا النور وهذا الوحي المبين؟!

فيجب أن نقدر هذا الوحي حق قدره، فلا ندخل فيه ما ليس منه، فكل حديث موضوع ننزه عنه الشريعة وننزه عنه الرسل، ولا تجوز روايته إلا على سبيل بيانه للناس، وكذلك تنزهه عن الآراء، فهو بذاته محفوظ بإذن الله تعالى، وقد كانت طريقة علماء السلف من التابعين ومن بعدهم هي اتباع السبيل، والحذر الشديد من البدع وأهلها، ولذلك كانوا رحمهم الله تعالى لا يجادلون أهل البدع، بل إنهم يرفضون أن يكلموهم أصلا، حتى أن أيوب السختياني رضي الله تعالى عنه عرض عليه أن يسمع من بعض أهل البدع كلمة فقال: لا ولا نصف كلمة وخرج وتركه، وبلغ بعض علماء السلف بدعة من بعض الناس فأقسم بالله أنه لا يؤيه وإياه سقف واحد إلا سقف المدينة. [10]

أعظم أمّة في التعلق بالوحي هي أمّتنا الإسلامية، وعظم هذا التعلق بعظم شأن الوحيّين – القرآن والسنّة – في نفوس أفرادها، إذ بالوحي عرفت الأمّة ربّها وخالقها، و به عرفت من أين أتت وكيف جاءت، وأين ستسير بعد هذه الرحلة الطويلة الدنيوية، ومن يملك مستقرّها بعد فنائها في هذا الكون، وبالوحي غيرت الحضارات إلى الأحسن، وعدّلت الأخلاق إلى الأجمل، وحاربت الظلم بين الشعوب، وأثبتت العدل الدائم ما دام مقاصد الوحي حاكمة ومديرة لشؤون العباد والبلاد.

الوحي هو الرابط الأوّل بين الإله وخلقه بواسطة ملكه أمين الوحي جبريل على السلام.

فالقرآن الكريم نزل في الشعراء وناقش الشعر والحكم، والبلغاء الذين في قمّة البلاغة والفصاحة، فأعياهم أن يأتوا بمثل أصغر قطعة منه، بل عجز البلغاء واستسلم الفصحاء، واعترفوا بقوّة نظمه ووضوح لسانه. وهذا دليل آخر على إلهية مصدره.

قال تعالى: {قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [11]

فهذا التحدي شامل لجميع جوانب القرآن الكريم، في النظم وجمال الصوت، وحسن السبك.

فالآيات والأحاديث في هذه المسألة كثيرة

فالوحي المحمدي لم يقاومه أحد بمرّ الزمان وبشواهد التاريخ إلاّ فضح على رؤوس الأشهاد، كما هو الحال والشأن في مسيلمة الكذّاب الدجال، الذي ادّعى النبوة، والمغيرة الملعون.

فهذا الوحي نزل في زمن طلوع وارتفاع نجم البلاغة والفصاحة في الجزيرة العربية، ومع ذلك عجز كبار سادة البلغاء أن يأتوا بمثل أصغر جزء أو حتى جملة منه، وهذا التحدي ظاهر في قوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} [12]

وفي قوله سبحانه وتعالى: {أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ}. [13]

وهذا التحدي قائم إلى قيام الساعة، وهو موجه إلى الثقلين معا،

فهذا هو الوحي في فكرنا الإسلامي، بشموله، عقيدة وفلسفة، بفهم أصحابه من العلماء والمفكرين.

والوحي في هذا الفكر أنواع ومراتب، ويرى الشافعي ومن نهج نهجه إلى أنّ الوحي هو القرآن الكريم. .. " [14]

وهذا ليس ببعيد، لأنّه يجوز تعريف الوحي بالقرآن، مع كونه أعمّ منه.

والوحي أصل الثقافة الإسلامية كلّها. وجميع العلوم والمعارف التي علمتها البشرية فرع من الوحي المحمدي – القرآن الكريم –. .. " [15]
أو لجلّ هذه العلوم شواهد في الوحي، حتى المتجددّ منها، وهذا بتجدد الزمان.

فالوحي في فكرنا هذا أعم من القرآن الكريم، كما ذكرنا، بل كلّما ذكره العلماء في مفهوم اللغوي للوحي له مكانته وتفسيره في المسألة.

وأهداف الوحي ومقاصدها في الفكر الإسلامي، هي تحقيق الخير لكلّ بني الإنسان، ولتوظيف المعرفة لصالحهم، وهذه الأهداف والمقاصد عامة للإنسان من حيث هو إنسان مؤمنا كان أو كافرا. " [16]

قال الله تعالى: {وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ} [17] والعالمون هم البشرية أجمعين، مؤمنهم وكافرهم.

وفي فكرنا الإسلامي نؤمن بوجود علاقة قوية بين الوحي والعقل والعلم والكون. فبهذا الاعتبار يثبت التقدم وينفع، ويدون الاستقرار في الكون فتعّم الخير والبركة لكلّ ساكن الكوكب.

فالوحي والعقل وسيلتان، وأداة من أدوات المعرفة، ولكلّ منهما مجاله وميدانه الذي نجح في الكشف عن المعرفة والتعرف عليها. "[18]

وكذلك نرى أن العلم الحقيقي يوافق الوحي ويؤيد ما جاء به وأخبر عنه، فلم يثبت في التاريخ أنّ النظريات العلمية الجديدة المتفق على صحتها وعلميتها جاءت مناقضة لأخبار الوحي وتعليماته. "[19]

فالوحي والكون ميدان ومصدر للمعرفة، وسبب لكشف الحقائق، ولا ينكر هذه النظرية كلّ مخالف منصف فضلا عن غيره من العقلاء.

قال تعالى:{قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[20]

وقال سبحانه وتعالى: {قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ}[21]

ففي إسلامنا الحنيف لا يمكن التفرقة بين الوحي والكون بحال من الأحوال، لأنّه خلق لغاية أسمى يعرفها المسلمون، ولم يخلق عبثا ولا مصادفة كما يعتقده المخالفون، بل خلق لغاية مقصودة ووظائف منشودة.

فالتعلق بالوحي وتعليماته العلمية وسيلة من وسائل المعرفة والتقدم، وليس كما يرى الأعداء، أنّ التمسك بقضية الوحي وتعليماته سبب لتخلّف المسلمين، فهذا بهتان مبين وافتراء على الخالق سبحانه وتعالى، ومن المؤسف جدا أنّ كثير من المثقفين المسلمين آمنوا بهذه الفكر. هداهم و ردّهم إلى رشدهم، والاعتصام بحبلهم المتين آمين.

قال الدكتور محمد سيّد: " ولقد انتقل هذا الموقف بكامل حيثياته وملابساته إلى العالم الإسلامي، وتبنى العلمانيون العرب في مصر وفي غيرها الدعوة إلى أحد أمرين:

1- إما التخلص من الوحي كلية وبدعوى أنه يمثل قيداً على حركة العقل ويعوق حركة التقدم والتطور فلابد من الانتقال من العقيدة إلى الثورة عليها طلباً للتغيير.

2- وإما إخضاع الوحي للواقع، ويفسر نصوص الوحي في ضوء واقعنا نحن، وفي ضوء ظروفنا نحن بدلاً من أن تخضع واقعنا وظروفنا للنصوص. "[22]

فهذا هو الجهل الواضح بقيمة هذه الشريعة الإسلامية، التي ما جاءت إلاّ لتحقيق العبودية، وتحرير النفوس من قيود الدنيا مصاعبها، والحث على التقدم والتطور.

والوحي في الفكر الإسلامي ضرورة اجتماعية وحاجة نفسية عقلية إنسانية، بل هو منظم حياة البشرية أجمع، فلا يستغني عنه الإنسان السوي، ومن شكّ في هذه الحقيقة فليظهر نفسه بدليل واقع، فنادي أكابر المستشرقين أن يبحثوا في القضيّة ليقفوا على ما ينجيهم من ويلات الحياة، ويوفر لهم طمأنينة النفس والبال. ابحثوا في الوحي أيها العقلاء، واجعلوا الوحي منبع أبحاثكم وأنصفوا، فسترون عجبا ومصلحة لهذا الكون بتنوع أحواله وتغيّراته.

فضرورة الوحي في المجتمع الإنساني باين وملموس، هذا الذي نؤمن به، لأنّ أحوال الإنسانية بكثرتها واختلافها تحتاج إلى قانون سليم ينظمها وتسوقها إلى النجاة والنجاح.

فالمتأمل بما يجري في كوكبنا الأرضي من مشاكل وحروب، وأنواع الظلم المختلفة بين البشرية، يرى الحكمة الإلهية جلية في تشريع الأحكام وتوثيق الحدود، ويوقن يقينا جازما أنّ الذي يستطيع الضبط على أخلاق النّاس وسلوكياتهم هو قانون إلهي يهدف إلى إنشاء وحفظ مصالح النّاس، ودرع المفاسد عنهم، وهذا القانون هو الوحي الإلهي والحصن الربّاني الحصين القويم.

إنّ الدول المتقدمة في هذا العصر سواء عسكريا أو اقتصاديا يسعون جميعا إلى تحقيق الزعامة والرفاهية.

وهذه الأهداف لا تتحقق إلاّ بإثبات الاستقرار والأمان والسكينة، وطمأنينة القلب، وتلك إذن هي التي تورث الراحة النفسية. وتوفير ذلك من مقاصد الوحي.

فلمّا كانت إرادات البشرية ورغباتها لا تنحصر ولا تنتهي مع كونها ألوانا مختلفة صعب السيطرة عليها، فمن ثمّ كان لا بدّ من مرجع عادل يرجع إليه كلّ إنسان لضبط نفسه الأمّارة بالسوء، فمن هنا كان الوحي الحلّ الأمثل الوحيد، والمرجع الرشيد لحلّ هذه المشكلات، لكونه إلهي الأصل والمصدر. إنّ الذي خلقنا أعرف بنا وبمشاكلنا وبما ينفعنا من غيره من أصحاب الخرافات. فلا نجبر المخالف أن يؤمن بها الخالق، ولكن نقول له ابحث في نصوص الوحي المتعلقة بقضية حقوق الإنسان واحكم بنفسك، فهل ترى لها سميا وعدلا؟

وتؤمن بعض الفلسفة كون الحياة الكونية الدنيوية التي يلاحظها المؤمن والكافر مع قيمتها وأهميّتها في حياة النّاس لا ترشد إلى غاية وجود الكون، ولا تكشف حقائق الوجود، فمن هنا جاء دور الوحي لبيان فضل الحياة ومكوناتها وقيمة الوقت والحفاظ عليه، وذلك مقرونة بدار الآخرة التي هي ميدان حصاد زروع الدنيا بأنواعها وألوانها.

فبيانا لذلك قال العلماء:

". .. فالإنسان يأكل الطعام. ويعرف الطبيب كيف يتحول الطعام في جسم الإنسان إلى طاقة عن طريق الهضم والتمثيل الغذائي خلال الجهاز الهضمي ودوره المعروف للأطباء في هذه العملية، ولكن لا يعرف الطبيب لماذا تتحول هذه الطاقة في العين إلى قوة باصرة، ولا يعرف لماذا تتحول هذه الطاقة في الأذن إلى قوة سامعة ولا لماذا تتحول هذه الطاقة في اليد إلى قوة باطشة، ولا لماذا تتحول في الإنسان إلى قوة مدركة عاقلة، ولم يتساءل عنها الطبيب لأنها أصلاً ليست من مهمة العلم، ولو سألت طبيباً لم تتوزع الأغذية في بدن الإنسان إلى طاقة تؤدى دائماً إلى وظائف محددة في كل عضو من أعضاء الجسم وأن هذه الوظائف لا تتخلف أبداً إلا لعلة طارئة؟ أو كيف تنظم هذه الطاقة وظيفتها في كل كائن حي. حتى يطير بها الطير في السماء ويسبح بها السمك في الماء، ويعيش بها الإنسان على وجه الأرض؟ لكانت إجابة الطبيب عن هذه الأسئلة إن ذلك ليس داخلا في مهمة العلم إن العلم يصف ما يحدث وليس من مهمة العلم أن يتكلم عن لماذا يحدث؟

إن معرفة العلل الغائية لهذا الوجود سر لا يكشف عنه إلا الوحي، لأن العلم كما قلنا يتكلم عما يحدث ولا يعنيه التحدث عن العلة الغائية التي هي إجابة عن السؤال... لماذا؟ ولا راحة للعقل إلا باكتمال الموقف المعرفي لديه، وإذا كان العلم قد كشف له عن كثير من دقائق هذا الكون وأسراره فيأتي دور الوحي ليقول للعقل ما عجز عنه العلم، ويعرفه بأسباب هذا الوجود، ويكشف له عن غاياته وأهدافه. حتى لا يقع العقل في أودية الحيرة وضلال العبثية. " [23]

قال تعالى: {وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[24] وقال عزّ وجلّ: {يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ}[25]

فإذا عرفت هذا وتيقنت به أرشدت إلى سواء السبيل، ونجحت في حياتك بفضل الله العظيم، إذ الوحي صلة بين العبد وربّه، ومرشد إلى معرفة الكون وسرّ إيجاده وحفاظ الحقوق وصونها.

قال دكتور حمّود:

" والبحث الكلامي الإسلامي في الوحي يكاد يظهر في اتجاهين أساسيين:

الاتجاه الأول: البحث في الوحي من حيث كونه الأصل الذي يستمد منه المتكلمون أصول الفكر الكلامي وأصول العقيدة الإسلامية بما ورد في النص القرآني آيات تمثلت فيها تلك الأصول فيهتم المتكلمون بدراسة تلك النصوص والاعتماد عليها في تقديم أسس العقيدة وإثباتها والدفاع عنها.

٢- الاتجاه الثاني: البحث في الوحي الإلهي من حيث هو ظاهرة خاصة تمثل طريقاً للاتصال بين الله تعالى والبشر المصطفين لاطلاعهم على الغيب وتميز الأنبياء عمن سواهم من سائر البشر في ذلك. "[26]

فعلى علماء فلسفات الأخرى أن يبحثوا بأنصاف هذه القضية، ولا تغرنهم سلوكيات بعض جهال المسلمين، أو المنتسبين إلى الإسلام، لأنّ الإسلام دين سلام وحرية وعمل، ودين بحث وتحقيق وعدل، وليس دين حرب وقتل ونهب وخمول.

فالقرآن الكريم في فكرنا الإسلامي هو أعلى مصدر المعرفة للكون بأثره، فلا تهاونوا في شأن كنوزه المعرفية، ابحثوا فيه بكلّ دقة أيّها العقلاء، واحترموا نصوصه وطوّلوا النظر في سوره وجميع آياته تقفون على حقائق لا تخطر ببالكم.

فهذا الوحي الذي نؤمن بفضله على الكون ومن عليه وبقدسية مصدره، لقد استقبله كثير ممن ينتسبون إلى العلم والثقافة بإنكار وتشكيك، أنكروا وجود الوحي أصلا، وكذلك نفوا وقوع هذا اليوم، وليس لديهم ثمة دليل يرجع إليه، وبرهان يهتدى به.

فمن هنا نرى أنّ قضية إمكان الوحي ووقوعه،

من المباحث والمسائل المهمة في قضية الوحي في الفكر الإسلامي، وذلك لكثرة منكريه بين بني الإنسان.

قال الدكتور حسين الذهبي رحمه الله في مناقشته لهذه المسالة:

" الناس أمام إمكان الوحي بالفعل طوائف ثلاث:

الطائفة الأولى: أصحاب الديانات السماوية الذين آمنوا بها، وأذعنوا لها، وهؤلاء مؤمنون بالوحي وإمكانه ووقوعه، لأنّ ذلك الإيمان منهم نتيجة حتمية لإيمانهم برسلهم، وتصديقهم لهم في كل ما يبلغون به عن الله، إذ الوحي في أي صورة من صوره – هو الوسيلة الوحيدة لتلقي الرسالات عن الله سبحانه.

قلت: وهو المعتمد عليه في قضية الوحي الإلهي في فكرنا الإسلامي الحنيف.

ثمّ زاد قائلا: هذه الطائفة لا كلام لنا معها في إمكان الوحي ووقوعه، لأنّها متفقة معنا في هذه القضية، فإن كان هناك بعد ذلك إنكار من بعض أتباع الرسالات لرسالة ما غير رسالتهم، فذلك ليس إنكارا لإمكان الوحي في ذاته ولا لوقوعه، وإنّما هو إنكار لأن يكون فلان (من الأنبياء) نبيا يوحى إليه من قبل، وذلك يحتاج إلى إقامة الدليل على نبوته، واثبات النبوة لنبي ما، شيء خارج عن موضوعنا الذي نتكلم فيه.

الطائفة الثانية: جماعة من الفلاسفة الغربيين (في الفترة من أوائل القرن السادس عشر إلى قريب من منتصف القرن التاسع عشر) ذهبوا بدافع من المادية المشككة في كلّ ما سواها _ (إلى أن مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة، وتغالت حتى أنكرت الخالق والروح معا، وعللت ما ورد من الوحي في الكتب القديمة بأنّه: إمّا اختلاف من المتنبئة أنفسهم، لجذب الناس إليهم وتسخيرهم لمشيئتهم، وإمّا هذيان مرضى يعتري بعض المصيبين فيخيّل إليهم أنّهم يرون أشباحا تكلمهم، وهم لا يرون في الواقع شيئا).

وظاهر أنّ هذه الطائفة تنكر الوحي لأنّها تنكر وجود الله ووجود الروح، فهي تحتاج إلى إثبات كلا الأمرين أوّلا، ثمّ نردّ عليها بعد ذلك دعوى اختلاف الأنبياء أو هذيانهم "

ثمّ بدأ في الردّ على هذه الطائفة المنحرفة فقال: " فنقول:

أمّا عن وجود الله – سبحانه – فالأدلة عليه قائمة، نقرؤها في كتاب الكون المفتوح دائما أمام أبصارنا، ونقرؤها بعد منطقا سليما فيما قرره علماء الكلام في مباحث الألوهية.

وأمّا عن وجود الروح، فقد ثبت ذلك ثبوتا علميا تجريبيا لا شك فيه، كما سترى ذلك بعد قليل وعند الكلام عن الطائفة الثالثة.

وإذا فلا يبقى بعد ذلك إلى إقناع هؤلاء بإمكان اتصال الروح – وهو الملك – بالنبيّ الموحى إليه ليبلغه عن الله تعالى ما يريد، وهذا ما سنبرهن عليه عند الكلام عن الطائفة الثالثة.

وأمّا قولهم: إنّ دعوى الوحي اختلاف من المتنبئة، أو هذيان مرضى يعتري بعض المصيبين فيخيل

إليهم أنّهم يرون أشباحا تكلمهم وهم لا يرون في الواقع شيئا، فذلك اتهام قديم، رمى به المكابرون المعاندون رسلهم من قبل، وهو اتهام باطل من أساسه، فالمعجزات التي أظهرها الله على أيدي رسله، واقترنت بالتحدي، وانتهت إلى العجز التام عن معارضتها بمثلها، دليل صدقهم في كل ما يبلغون به عن الله. وما عرف من سيرة الأنبياء من أنّهم جميعا كانوا بين أقوامهم في الذروة عقلاء وكمالا، وأنّ الله أصلح بهم أمما كانت في الذروة انحرافا وضلالا، يدلّ –بيقين – على أنّهم كانوا أبعد الناس عن الهذيان والخيال. .."

الطائفة الثالثة: جماعة من العلماء والفلاسفة الغربيين ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر، آمنت بالأرواح وبما لها من قدرات وتصرفات فوق ما نتصور، وبأنّ هذه الأرواح يمكن استحضارها، والتحدث إليها، وتسخيرها في بعض الأمور، حتى أنّها لتسأل عن الخفيات فتظرها، وعن بعض المغيبات فنكشف عنها، ويذكر المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدي في دائرة المعارف – بعد ما تحدث عن ظهور هذه الطائفة المؤمنة إيمانا مطلقا بعالم الأرواح، والتي بعثت في قضية الوحي –كما يقول – الحياة بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة – يذكر أنّ لفيفا من أساتذة الجامعات في الدول الغربية ألّفوا في سنة 1882 جمعية دعيت باسم (جمعية المباحث النفسية) كان الغرض منها: (البت في المسألة الروحية، وتحقيق حوادثها بأسلوب النقد الصارم، والحكم بقبولها نهائيا في العلم إن كانت حقيقة، أو تقرير أبعادها عن العلم والفلسفة إن كانت من الأمور الوهمية).

ويذكر –بعد ذلك – (أنّ هذه الجمعية مكثت نحو ثلاثين سنة، حققت من خلالها ألوفا من الحوادث الروحية، وعملت من التجارب في النفس وقواها ما لا يكاد يدرك لولا أنّه مدون في محاضرات تلك الجمعية في نحو أربعين مجلدا ضخما، فكان من ثمرات جهادها

إثبات شخصية ثانية للإنسان، أي أنّنا أحياء مدركون في حياتنا الحاضرة لا بكل قوى الروح التي فينا، بل بجزء من تلك القوى، سمحت لنا به حواسنا الخمس القاصرة، ولكن لنا فوق ما تعطيه لنا حواسنا هذه حياة أرقى من هذه الحياة، لا تظهر بشيء من خلالها إلا إذا تعطلت فينا هذه الشخصية العادية بالنوم العادي، أو النوم الصناعي (المغناطيسي) وقد جربوا ذلك على المنوّمين نوما مغناطيسيا، فوجدوا: أنّ النائم يظهر بمظهر من الحياة الروحية لا يكون له وهو يقظان: فيعلم الغيب، ويخبر عن البعيدين، ويبصر ويسمع، ويحس بغير حواسه الجسمية، ويكون – وهو في تلك الحالة – على جانب كبير من التعقل والإدراك. قالوا: (وتكون هذه حالة الإنسان في نومه العادي، والدليل على ذلك ما يأتيه المصابون بمرض الانتقال النّومي من الأفعال المعجزة والمدارك السامية).

قالوا: (وهذه الشخصية الباطنة أصبحت مدركة بالحسّ، فإنّ ظهور النائم نوما مغناطيسيا بهذا المظهر من العقل الراجح، والفكر الثاقب، والنظر البعيد، وسريانه في سرائر النفوس، واكتشافه لخفايا الأمور، وجولاته في الأقطار البعيدة، بينما يكون جاهلا غبيا في حالته العادية، وأدلّ دليل على أنّ للإنسان

شخصية تحجبها هذه الحياة الجسدية، ولا تظهر إلا إذا وقع جسمه في نوم طبيعي أو صناعي. ثمّ إنّ الرؤى الصحيحة التي تقع كفلق الصبح، ويدرك بها الإنسان أمورا غيبية، أو يحل فيها مسائل عويصة لم يحلها وهو صالح، أو انتقاله وهو نائم إتيانه أعمالا لا يستطيع عملها وهو يقظ، يدلّ كذلك على أنّ له شخصية باطنية أرقى من شخصيته العادية).

ثمّ نقل كلام الأستاذ فريد وجدي قائلا: (هناك أمورا تدلّ بالحس على وجود تلك الشخصية، درستها تلك الجمعية درسا مدققا، وحققت تجارب من درسها قبلها. . وذكر من أمثلة ذلك عبقرية الحاسبين على البديهة لأعوص المسائل الرياضية التي تحتاج إلى زمن كبير في التفكير والعمل، فيجيبون عليها على الفور وهم لا يدركون كيف وجد هذا الحل في نفوسهم، وحديث أحد الشعراء الغربيين عن نفسه: أنّه كان ينام – غالبا – وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة في اليوم التالي عندما يفكر فيها. . وذكر غير ذلك من الوقائع المشابهة التي لا تصدر إلا عن الشخصية الباطنية الملهمة.

غير أنّ الذين آمنوا بوجود الروح وخلودها وما لها من قوة الإدراك والإلهام والتأثير، لا يرون: (أنّ الوحي يكون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاما عن الله، بل يكون في تجلي روح الإنسان عليه بواسطة شخصيته الباطنية، فتعلمه ما لم يكن يعلم، وتهديه إلى خير الطرق لهداية نفسه، وترقية أمته).

ثمّ لخصّ الدكتور رحمه الله عقيدة هذه الطائفة بقوله:

" وخلاصة ما انتهت إليه هذه الطائفة الثالثة هو:

1– أنّهم يؤمنون بوجود الأرواح. .. وهذا نسلم به ولا ننكره.

2– وأنّهم يؤمنون بأنّ لها إدراكا واسعا، وقدرة فائقة، وتأثيرا بليغا. . وهذا – أيضا – نسلم به ولا ننكره.

3– وأنّ هذه الروح هي التي تنفث في روع الأنبياء ما يعتبرونه وحيا من الله، وأنّها قد تظهر لهم متجسّدة فيحسبونها من ملائكة الله التي تهبط عليم من السماء. .. وهذا ما لا نوافقهم عليه، ولا نسلم لهم به. "

ذلك لأنّهم عللوا إنكارهم للوحي بطريق الملك: " بأنّ الله منزه عن المكان، أنّ الملائكة – مهما قيل في روحانيتهم وتجرّدهم عن المادة – لا يعقل أنّهم يقابلون الله ويسمعون منه كلاما، لأنّ هذا كله يقتضي التحيز وعدم التنزيه المطلق، ولأنّ الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلا من الروح الإنساني التي هي من روح الله نفسه، فمثلهم ومثلها سواء " [27]

ردّ عليهم الدكتور بقوله: " وهذا وهم باطل، فالله – حقا – منزه عن المكان كما يقولون. والملائكة – حقا – لا يقابلون الله كما يقولون، ونحن حين نقول: بأنّ الوحي يكون عن طريق الملك، لا ندعي أنّ الملك يقابل الله سبحانه، لأنّ هذا يستدعي أن يكون الله – جلّ شأنه – في مكان، وهذا يقتضي التحيز الذي لا يقول به مؤمن بالله وصفاته.

وكلّ ما نقوله هو: أنّ الملك – بدون مقابلة ولا مواجهة – يتلقى الوحي عن الله – تعالى – تلقيا روحانيا لا ندرك كنهه، ثمّ ينزل به على النبيّ صلى الله عليه وسلم فيبلغه إليه على صورة من الصور التي ذكرنا من قبل، وهذا كله اتصال روحي لا ينكره من يؤمن بعالم الروح.

وأمّا قولهم: (إنّ الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلا من الروح الإنساني التي هي من روح الله نفسه، فمثلهم ومثلها سواء). .. يريدون من وراء ذلك أن يقولوا: أنّ الملائكة ليسوا أهلا لأن يكونوا أو يكون أحدهم وسيطا بين الله والأنبياء، لأنّ روحانية الأنبياء التي هي من روح الله، قولهم هذا لا نسلمه لهم أيضا، لأنّ دعوى أنّ الروح الإنساني من روح الله، وأنّهما في ذلك سواء، دعوى تستلزم الجزئية إن أرادوا أنّهم بعض منها، وتستلزم المشابهة إن أرادوا أنّها من جنسها، وهذا لا يتفق مع ما ثبت بالأدلة القاطعة من وحدانية الله في ذاته وصفاته، قال تعالى: {قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ} [28]

نعم، أنّ الروح الإنساني من روح الله، على معنى أنّها من روحه التي خلقها وأودعها كل كائن حي، وعلى هذا نفهم قول الله عزّ وجلّ في شأن آدم عليه السلام: {فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ} [29]

وعلى هذا المعنى، فالروح الإنساني – ومنها أرواح الأنبياء – والروح الملائكي – ومنها روح جبريل حامل الوحي – سواء إذ الكل من خلق الله عز وجل.

على أنّ روح الملائكة – قطعا– أعلا وأشف من روح الأنبياء، لأنّ الملائكة أرواح مجردة عن المادة، والأنبياء بشر من جسم وروح، والروح المجردة أقوى – بلا شك – من الروح التي تلابس الجسم وتخالطه.

نعم، قد يكون مقام الأنبياء عند الله أفضل من مقام الملائكة، وذلك لا يرجع إلى تفاضل بينها في الأرواح، وإنّما يرجع إلى شيء آخر وراء ذلك. " [30]

وللشيخ رشيد رضا مناقشة حميدة في هذه المسألة ننقلها هنا لفائدتها ونفائسها وشدّة تعلقها بموضوعنا.

قال رحمه الله:

" الفصل الثالث في شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الإلهي وتصويرهم لنبوة محمّد صلّى الله عليه وسلم بما يسمونه الوحي النفسي ثمّ لخصّ بحثه بقوله:

" خلاصة رأى هؤلاء الماديين: أن الوحي إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج، ذلك أن منازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية وتقاليد وراثية رديئة، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشادا إلهيا نازلا عليه من السماء بدون وساطة، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء، فكل ما يخبر به النبي كلام ألقى في روعه، أو عن ملك ألقاه على سمعه، فهو خبر صادق عنده.

يقول هؤلاء الماديون: نحن لا نشكّ في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع وإنما نقول: إنّ منبع ذلك من نفسه، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي يقال إنه رأى عالم المادة والطبيعة، الذي يعرفه جميع النّاس؛ فإنّ هذا (الغيب) شيء لم يثبت عندنا وجوده، كما أنّه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال، وإنما تفسير الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت. " [31]

فالقوم في عقيدتهم هذه، ليس لهم أدنى برهان على ما يقولون، لأنّ عدم معرفتهم لظواهر الأشياء لا يعتبر عدم ثبوتها، ولا يعرفون كلّ شيء في هذه الحياة حتى يحكموا بعدم صحة النظريات أو العقائد بعدم وقوعهم على حقيقة كنهها.

وقد يرى بعض العلماء أنّ من مستلزمات تصديق النبي عليه السلام في رسالته، سيرته الحميدة وأخلاقه الرشيدة بين الخلائق، وأدبه الجميل، لكن أنكر على أصحاب هذا الرأي أنّ هذه الصفات فقط غير كافية في إقناع منكري الوحي في تصديقه، لأنّ أغلب من أنكروا الوحي وأنكر إمكان وقوعه جعلوا العقل البشري هو الميزان الفاصل في الباب.

فالعقل لا يقتنع بكون هذه الصفات النبيلة يمكن أن تكون هي الدليل على صدق الوحي والإيمان بالعالم الغيبي، إذ يمكن أن تصدر هذه الصفات عن كثير من النّاس، بل إنّ البعض يجبلون عليها.

ولعل الأقرب إلى الصواب ما ذهب إليه بعض أهل العلم كأمثال شيخ رشيد رضا رحمة الله على الجميع، أنّ هذه الصفات قد تكون سببا في نهوض أمته عليه الصلاة والسلام، إذا امتثل بها النّاس وظهرت في سلوكياتهم وأخلاقهم، لأنّ أخلاقه القرآن، والقرآن الكريم جاء لهداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وفي الحديث (كان خلقه القرآن) [32]

وقال الله تعالى: {ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ}[33]

وقال سبحانه وتعالى: {وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ} [34] وقال عزّ وجلّ: {شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ}[35]

فهذه الآيات الكريمة، تؤيّد ما قولناه: إنّ الوحي القرآني مقصده الأساسي هو إرشاد الناس إلى الصراط المستقيم، إذن كلّ من آمن بآياته وامتثل بأوامره واجتنب نواهيه أفلح في الدنيا والآخرة. وهذا القرآن هو خلقه عليه الصلاة والسلام، به تقدمت الأمم وارتقت إلى أعلى الدرجات في الثقافة وغيرها.

وصلى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش:

[1] شرح العقيدة الطحاوية لعبد العزيز آل الشيخ ج5ص:8

[2] تفسير السمعاني ج5ص:284

[3] لسان العرب ج15ص:379

[4] معجم مقاييس اللغة ج6ص:93

[5] مختار الصحاح ج1ص:740

[6] الوحي ودلالته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، ص: 33

[7] أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ص: 154- 155

[8] الوحي المحمدي ص: 81-82

[9] عزيز بن فرحان العنزي، تقديم صالح بن عبد، (البصيرة في الدعوة إلى الله) ص: 128

[10] الحوالي، سفر بن عبد الرحمن (شرح العقيدة الطحاوية) ص: 96

[11] سورة الإسراء آية: (88)

[12] سورة البقرة آية: (23)

[13] سورة يونس آية: (38)

[14] الوحي دراسة تحليلية ص: 42

[15] نفس المرجع ص: 51

[16] الوحي والإنسان ص: 141

[17] سورة الأنبياء آية: (107)

[18] الوحي والإنسان ص: 97

[19] نفس المرجع ص ك 110

[20] سورة العنكبوت آية: (20)

[21] سورة يونس آية: (101)

[22] الوحي والإنسان ص: 191

[23] الوحي والإنسان ص: 228 - 230

[24] سورة الإسراء آية: (85)

[25] سورة الروم آية: (7)

[26] الوحي ودلالته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي ص: 219

[27] الوحي والقرآن الكريم، ص: 13 - 16)

[28] سورة الإخلاص الآيات: (1 - 4)

[29] سورة الحجر آية: (29)

سورة ص آية: (72)

[30] الوحي والقرآن الكريم ص: 16

[31] الوحي المحمدي، ص: 59

[32] صحيح مسلم، كتاب المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم الحديث: (446) بلفظ: (فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن)

[33] سورة البقرة آية: (2)

[34] سورة البقرة آية: (120)

[35] سورة البقرة آية: (185)